مجلة الدراسات التاريخية
المجلد 26 العدد 01 السنة 2025 ص157 ص 174
E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

المغرب العربي بين انهيار دويلاته والعدوان الإسباني البرتغالي من القرن 15 إلى مطلع القرن 16

The Maghreb between the collapse of its smale States and the Spanish-Prtoguese aggression from the 15th century to the beginning of the 16th century

نجيب دكاني
جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة
n.doukani@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2025/08/31 تاريخ القبول: 05/ 2025/12 تاريخ النشر: 2025/12/18

Abstract: The Maghreb during the 15th century witnessed two existential dangers at the same time. The first was external, represented in the crusading Papal-Portuguese-Spanish aggression with its religious missionary motives hostile to Islam and Muslims, and its economic motives represented in the control of trade and pilgrimage routes across the Mediterranean Sea. The second was internal, represented in the fragmentation and division of its small states – the Hafsids and the Marinids – and their ambitions to expand at the expense of the Zayyanids. At the same time, those dynasties suffered from power struggles

among their sons, which even led them to seek the help of the Spanish-Portuguese enemy that was threatening their very existence in the first place.

Keywords: Zayyanid – Hafsid – Marinid – Papal Church – Spain

الملخص

شهد المغرب العربي خلال القرن 15م خطرين وجوديين في نفس الوقت. الأول خارجي تمثل في العدوان الصليبي البابوي البرتغالي الاسباني بدوافعه الدينية التبشيرية المعادية للإسلام والمسلمين والاقتصادية المتمثلة السيطرة على طرق التجارة والحج عبر البحر المتوسط. الثاني داخلي تمثل في التشتت وانقسام دويلاته -الحفصيين والمرينيين- وأطماعهم في التوسع على حساب الزيانيين. في الوقت الذي عانت فيه تلك الأسر من الصراع على السلطة بين أبنائها والذي أوصلهم للاستعانة حتى بالعدو الإسباني البرتغالي الذي يهدد وجودهم أصلا.

كلمات مفتاحية :الزيانية – الحفصية – المرينية – الكنيسة البابوية – إسبانيا

1- مقدمة

تعتبر الفترة العثمانية من تاريخ المغرب العربي الحديث مهمة و حاسمة و أساسية لعدة اعتبارات بغض النظر عن المدة الزمنية التي استغرقتها و التي دامت قرونا. فقد تعرضت فيه بلاد المغرب العربي لعدوان إسباني برتغالي في ذات الوقت الذي كانت فيه البلاد تعاني انقسامات و فوضى وضعف. فالجزائر ممثلة بإمارة بيت "عبد الوادي" الزيانية في تلمسان وجدت نفسها بين شقي رحى أطماع الحفصيين من الشرق و المرينيين من الغرب كل منهما يسعى للقضاء عليها و التوسع على حسابها. في ذلك الوقت، أوشك الإسبان على إتمام وحدتهم السياسية و إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس، تحديدا بسقوط "غرناطة".

أما البرتغال فقد احتل فعلا العديد من مدن المغرب الأقصى على ساحل المحيط الأطلسي، كل ذلك برعاية ومباركة الكنيسة البابوية. ولذلك فقد جاءت إشكالية هذا

المقال بالتساؤل حول ماهية عوامل الضعف والتفكك الداخلي لدويلات المغرب العربي في الوقت الذي كان فيه الخطر الصليبي البرتغالي الإسباني يهدد وجوده وكيانه أصلا بمشاركة ومساهمة ودعم الكنيسة البابوية في روما.

أما زمنيا فيمكن تحديد الإطار الزمني لموضوعنا هذا ما بين القرن الخامس عشر ميلادي والسابع للهجرة إلى مطلع القرن السادس عشر ميلادي والثامن للهجرة. [1]

2-الدولة الزيانية بين أطماع الحفصيين شرقا والمرينيين غربا

مع مطلع القرن الخامس عشر، تجددت أطماع الحفصيين من الشرق في الفترة التي تولى الأمير "أبي مالك الزياني" عرش تلمسان في 1411م. فحاول إصلاح أوضاع إمارته باعتماد الشدة تارة، والحزم تارة أخرى للسيطرة على الأوضاع الداخلية لإمارته. أما خارجيا فالتف إلى الحفصيين فاسترجع منهم كل الشرق الجزائري، ثم توسع غربا مستغلا الحرب الأهلية التي كانت قائمة بين السلطان المريني "أبي سعيد" وعمه "أبي حسون" حاكم "مكناس"، تزامنا مع احتلال البرتغاليين مدينة "سبتة" سنة 1415م. رغم المقاومة الشعبية التي اقتصرت على المجاهدين المتطوعين القادمين من مدن "سالة"، "أنفا" و "أزمور"، وكان أول رد فعل شعبي لتلك الهزيمة اندلاع ثورة شعبية داخل مدينة "فاس" أدت إلى مقتل السلطان "أبي سعيد" نتيجة انشغاله في الدفاع عن ملكه وامتيازاته وتخاذله في التصدي للخطر البرتغالي. كما قتل معه جميع أفراد عائلته باستثناء رضيع عمره سنة واحدة وهو آخر المرينيين الملقب بـ "عبد الحق" سنة 1420م.[2] تلك الأحداث ساعدت أمير تلمسان في السيطرة على مدينة "فاس"، وهذا ما شجع زعيم الوسطيين "أبي زكريا" انطلاقا في مدينة "سالة" من الاستيلاء على الحكم باسم السلطان "عبد الحق"، لتنتهي بذلك دولة المرينيين ويبدأ عهد الأسرة الوسطية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. إن ما قام به الزيانيون اعتبار اعتبر إنذارا

للحفصيين، فبادروا إلى تهجير إلى تجهيز حملة عسكرية ضخمة قوامها حوالي خمسين ألف محارب بقيادة "أبي فارس عزوز" بين 1394م و 1434م، حيث تمكن من السيطرة على مدينة الجزائر ثم إخضاع تلمسان سنة 1424م[3] ليتجه بعد ذلك إلى مدينة "فاس" التي كانت تحت حكم الأمير الوسطي "أبي زكريا"، الذي سارع إلى الاعتراف بسلطة الملك الحفصي، مما دفع بهذا الأخير إلى العودة إلى تونس.

إن سيطرة الحفصيين على المغرب الأوسط أي الجزائر مكنهم من اقتسام تجارة الذهب مع كل من "فاس" و "القاهرة" عبر ثلاث طرق للمبادلات تنطلق من الجنوب نحو الشمال. هذا ما مكن الحفصيين من تحقيق مشاريعهم التوسعية على حساب الجزائر، وهم مطمئنون على حدودهم الغربية، خصوصا أن ليبيا أيضا خضعت لهم.[4]

هاجم الحفصيون مجددا تلمسان مرتان الأولى بعد تمردها على سلطتهم سنة 1462م دون أن يتمكنوا من إخضاعها، لكنهم في المقابل تمكنوا من الاستيلاء على واحة "تغرت" في الجنوب الجزائري في الوقت الذي كانت فيه قسنطينة و كل الشرق الجزائري حتى بجاية خاضعة لهم[5]. الحملة الثانية على تلمسان كانت في شهر جويلية سنة 1463م بقيادة السلطان الحفصي "أبو عمر عثمان"، فأخضع كل المناطق التي مر بها ليراسله الأمير الزياني قبل وصوله إليها، ويتم إبرام صلح بين الطرفين ليعود على إثرها الأمير الحفصي إلى تونس عبر بجاية.[6]

أما بقية المدن الجزائرية فهي عبارة عن مدن مستقلة تتجاذبها القوى المتصارعة أنذاك، فمدينة الجزائر وسهلها "متيجة" فكانت تحت حكم "الثعالبة"، وكلما خضعت لسلطة ما، تدفع لها الجزية، وكانت من حين لآخر تتمتع باستقلالية. المهم بالنسبة لها استمرار النشاط التجاري مع الضفة الشمالية للبحر المتوسط أي دول أوربا، وهذا منذ أواخر القرن الخامس عشر.[7]

E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

أما إدارة مدينة الجزائر فكانت من اختصاص مجلس أعيان تحت حماية "الثعالبة" ومن بينهم الشيخ "عبد الرحمن الثعالبي"[8] وبقيت تحت سلطتهم حتى بداية الهجمات الإسبانية على السواحل الجزائرية في عهد "سليم التومي" والاستنجاد بالإخوة بربروس "عروج" و "خير الدين"؛ وفيما يخص مدينة وهران فقد كانت تابعة لإمارة تلمسان ومن بين من تعاقب على حكمها الزيانيون الأمير "أبي ثابت محمد الخامس سنة 1452 والذي حكم أيضا مدن الجزائر مليانا مستغانم تنس إلى أن هذه المدن كانت تتمرد على تلك السلطة وترفض الخضوع لها. [9]

كان أغلب سكان وهران حرفيين من بينهم عدد كبير من الأندلسيين فروا من اضطهاد الكنيسة الإسبانية أما تسيير المدينة فكان من اختصاص مجلس أعيان يتم اختيار أحدهم رئيسا له. وقد كان تجارها يسلحون العديد من المراكب لنجدة الأندلسيين خصوصا بعد سقوط "غرناطة" 1492م؛ إضافة للإغارة على سواحل "كتالونيا"، جزر "إيبيزا"، "إيوركا"،أما في حالة التسلح فقد عرف عنها حسن معاملتها للأوروبيينمما جعل الاتصالات والمبادلات مكثفة خصوصا مع الجنويين والكتالونيين.[10]

تعتبر بجاية من أهم المدن الجزائرية خضعت لحكم الحفصيين في تلك السلطة في تونس أثناء تولي "أبي عثمان" الحكم. كان عمه "أبا حسون" يحكم بجاية، وقد ثار هذا الأخير على ابن أخيه وانشغل بحكم بجاية وضرب عملته وهو ما دفع بابن أخيه إلى مطاردته ثم قتله سنة 1452م إلا أنه ساهم في إنشاء إمارة حقيقية ببجاية مكنت حكامها فيما بعد من التمتع باستقلالية وحرية تصرف خصوصا على المدن الجزائرية خصوصا في نجدة الأندلسيين المورسكيين الفارين من الاضطهاد الديني في إسبانيا وذلك بتسليح العديد من السفن والإغارة على سواحل هذه الأخيرة. [11]

أما خارج المدن وفي المناطق الداخلية الساحلية منها وفي الهضاب العليا فتتحكم فيها قبائل مستقلة خارجة عن أي سلطة نذكر منها قبائل "دواودة" وعلى رأسهم "بنع كاز" في نواحي "ميزاب" و"الحضنة" وحتى إلى بعض المناطق الصحراوية. كما نذكر "أولاد سالح" أحد فروع "الثعالب" فكان نفوذهم يشمل سهل "متيجة" حتى مدينة الجزائر. هذا التشتت والانقسام حتى الصراعات والحروب الداخلية مع انعدام سلطة مركزية قوية هو أحد أهم الأسباب الذي أدى إلى العدوان الإسباني على سواحل الجزائر مطلع القرن السادس عشر.

3-الصراع والحروب بين أمراء دويلات المغرب العربي والعدوان الصليبي الإسباني البرتغالي

إذا عدنا إلى أوضاع دويلات المغرب العربي، فالحروب والتهافت على السلطة هو ميزة تلك الفترة وهذا حتى داخل أبناء الأسرة الواحدة رغم الخطر الخارجي الإيبيري الذي كان يتربص بهم. فمثلاً احتل البرتغاليون مدينة "تبسة" سنة 1415م إثر حملة عسكرية قادها ملكها "دون خوان" مع مشاركة أبنائه بينما كان الأمير الماريني "أبي سعيد" يحارب الأمير "أبي حسون" من أجل السيطرة على مدينة "تلمسان" عاصمة الزيانيين. وقبل ذلك بقليل هاجم الإسبان مدينة "تيطوان" بقيادة ملك "قشتالة" "هنري الثالث" فقتل نصف سكانها وأسر النصف الآخر في الوقت الذي كان فيه سلطان المغرب الماريني "أبي حسون" في حملة عسكرية لإخضاع إمارة الزيانيين في تلمسان.[12] واستمر الوضع على هذه الحالة طيلة القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر. ففي المغرب استغل البرتغال حالة الفوضى والحروب الداخلية فتمكنوا من احتلال القصر الصغير سنة 1458م ثم جاء الدور على "أرزيلة" واحتلال طانجة سنة 1471م[13]. كما قام البرتغاليون بتخريب مدينة "أنفا" كليا - موقع الدار البيضاء اليوم- فكانت نهاية "الأدارسة" الذين جاءوا بعد المارينيين وكانوا في صراع على السلطة مع الوطاسيين الذين تحالفوا مع البرتغاليين بعد توقيع زعيمهم "محمد

الشيخ" اتفاقية معهم مدتها عشرون سنة. وكضمان لها من جانبه قام بتسليم ولده كرهنة لهم والذي سوف يعرف لاحقا بـ "البرتغالي".

تولت الأسرة الجديدة الحكم - الوطاسيون- في فترة شلل للسلطة المركزية أمام استقلالية أقاليم المغرب. ليزداد الضغط مع سقوط غرناطة سنة 1492م. وبدلا من توجيه جهدهم لمواجهة الخطر البرتغالي، قاموا بتشجيع الحروب الأهلية حفاظا على سلطتهم. ومع صعود الأشراف السعديين من الجنوب استنجدوا بالعثمانيين.

إن مشروع الاحتلال والتوسع البرتغالي في المغرب وخصوصا على سواحل المحيط الأطلسي ترتبط بعدة عوامل وأسباب في مقدمتها الدافع الديني الصليبي بتشجيع من الكنيسة البابوية ثم العمل التجاري الاقتصادي سعيا للتحكم في الطريق البحري على طول ساحل الأطلسي إلى خليج الذهب غانا ثم عبور رأس "الرجاء الصالح" وصولا إلى المحيط الهندي ومنها إلى الهند مصدرا للتوابل والتنافس الأوروبي كما يمكن للمغرب أن يوفر القمح والماشية لبلد يتميز بفقر زراعته وقلة ما حاصله وفوق كل هذا التمكن من السيطرة على طرق تجارية للذهب التي كان يتحكم فيها السلطان الحفصي من تجارته مع إفريقيا جنوب الصحراء وسعيا من البرتغال لتحويلها نحو البحر[14] إن التنافس الإسباني البرتغالي على السواحل الأطلسية للمغرب دفعت بالكنيسة البابوية في روما إلى التدخل من خلال معاهدة "توردیس لاس Tordesillas"[15] التي حددت "حجر باديس" المحتلة من الإسبان كحد فاصل بين المملكتين للبرتغال حرية تصرف في المغرب بما فيها الساحل الأطلسي وللإسبان مملكة تلمسان والسواحل الجزائرية مع ذلك فأهدافها مشتركة تتمثل في حصار وخنق بلاد المغرب العربي ثم إخضاعها واحتلالها وتركيز على إقامة التحصينات العسكرية على المدن الساحلية المحتلة فأدى ذلك إلى خنق تجارة المغرب الخارجية مما دفع بمدينة "تسافي" إلى إعلان خضوعها

للبرتغاليين سنة 1480م. ورغم قلة التعداد البرتغالي فقد تمكنوا من إقامة محمية في منطقة "دوكالة" بمساعدة عميل لهم يدعى "يحيى بن تعفوفت" [16]وواصلوا سيطرتهم باحتلال كل من "أزمور" 1513م ثم "مازغران" 1514م و"آغوز" 1519م. كما هددوا كل من "مراكش" و"المعمورة" سنة 1515م.

من جهتهم تمكن الاسبان من احتلال مدينة "مليلة" 1497م بواسطة الأسطول الذي كان موجها لحملة "كريستوف كولومب" الثانية إلى أمريكا. ثم جاء الدور على "حجر باديس" 1507م كل تلك الأحداث تزامنت مع اشتداد الصراع بين "السعديين" و "الوطاسيين" على السلطة في المغرب مما أثر سلبا على الأوضاع الاقتصادية. فتراجع الانتاج الزراعي بسبب هجرة الفلاحين لحقولهم و أراضيهم و تعطلت التجارة الداخلية لانعدام الأرض. كما فرضت الدول الأوربية حصارا تجاريا على كل المغرب لمنعه من الحصول على الأسلحة التي كان في حاجة ماسة له للدفاع عن نفسه و التصدي للعدوان البرتغالي الاسباني.[17]

أما بالنسبة للوضع الاجتماعي فقد وصل الأمر إلى حدوث مجاعات رهيبة نذكر منها على الخصوص مجاعة 1521م التي دفعت بسكان "دوكالة" إلى بيع أبنائهم إلى البرتغاليين مقابل لقمة العيش. وضل الناس لفترة من الزمن يؤرخون هذه المجاعة. هذا الضعف و الفوضى الداخلية هي التي أدت إلى القضاء على "الوطاسيين" تدريجيا مع صعود الأشراف "السعديين" من الجنوب منذ المبايعة الأولى من طرف المغاربة لهم سنة 1509م بسبب رفعهم راية الجهاد ضد الخطر الخارجي و العمل على توحيد البلاد انطلاقا من الجنوب نحو الشمال مع توفير الأمن و الاستقرار حتى دخولهم مدينة "فاس" سنة 1554م.[18]

شهدت بلاد المغرب العربي في هذه الفترة صراعا وانقساما وحروبا بين دويلاتها يقابلها مشروع توحيد المماليك الاسبانية بدافع ديني صليبي ميزته ما أطلق عليه بحروب الاسترجاع ضد المسلمين وطردهم من الأندلس وهذا ما ساهم في وضع أسس وحدة

سياسية منذ منتصف ق13م بظهور مملكة البرتغال في الجزء الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية، ورغم الاختلاف والتنافس بين مملكتي "قشتالة"المتجهة أكثر نحو إنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة ومملكة "الآراغون" الساعية لبسط نفوذها على البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على مدينة "برشلونة". حيث استولى "جاك الأول الآراغوني" على "جزر البليار" و"فالانسيا" ثم يتمكن من إخضاع إمارة "نابولي" بعد صراع طويل على يد "الفونسو الخامس".

على أن أهم حدث في تلك الفترة هو زواج "فرديناند" ملك الآراغون[19] من "ايزابيلا"[20]وريثة عرش "قشتالة" بعد وفاة أخيها الملك وقد ترددت في الاختيار بين ملك الآراغون وملك البرتغال الذي طلبها أيضا للزواج وكان قرارها الأخير مصيريا بالنسبة للمماليك الثلاث حيث انتهى بإخضاع إسبانيا الموحدة للبرتغال في 1483م.

هكذا تشكلت إسبانيا المسيحية الصليبية الموحدة سنة 1474م ورغم الصعوبات التي اعترضتها من اختلاف توجهات المملكتين باستمرار مملكة "فيرديناند" بتكريس اهتمامها على البحر المتوسط وصولا إلى إيطاليا على الخصوص موجهة في ذلك من قبل دبلوماسيين وسياسيين ذوي اتجاه تجاري بينما مملكة "ايزابيلا" التي يسيطر عليها نبلاء عسكريون لهم نظرة توسعية أكثر عدوانية ومتجهة نحو المحيط الأطلسي.

هذه السياسة تأكدت منذ سقوط "غرناطة" بعد حصارها لأكثر من عشر سنوات من طرف الملوك الكاثوليك ومساندة ودعم كل أوربا الصليبية سواء بالرجال أو السلاح والمال يضاف لها الدور الكبير للكنيسة البابوية فقد فرض البابا في روما على كل الكاثوليك الأوربيين ما عرف بـ "الضريبة الصليبية" وهدفهم الأكبر إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس واستسلمت غرناطة في 02 جانفي 1492م وحصول أهلها على الأمان الذي لم يحترم إطلاقا وخرج أميرها "أبو عبد الله الصغير" يبكي وينوح فردت

عليه أمه عائشة قائلة له :"ابك مثل النساء على ملك لم تدافع عنه كالرجال" وذلك في المكان الذي ما زال يحمل إلى يومنا هذا عبارة :"زفرة الأندلسي الأخيرة" وتنطق بالإسبانية [21] « El ultimo suspiro del moro »

لقد حاول مسلمو الأندلس الاستنجاد بالمماليك في مصر لكن ضعف هؤلاء وانشغالهم بضمان ملكهم كان أقوى من نجدة الأندلسيين. أما فيما يخص الدولة العثمانية فقد كانت منشغلة بالحروب على جبهتين. الأولى شمالا ضد الدول الأوربية على الحدود البيزنطية ومن الجنوب الخطر المغولي ولم يعد أمام أهل الأندلس سوى الفرار من بطش الرهبان والكنيسة ومحاكم التفتيش ولم يجدوا أمامهم سوى بلاد المغرب العربي للجوء إليها. أما الملوك الإسبان فقد اعتبروا المغرب العربي القاعدة الخلفية التي انطلقت منها الفتوحات الإسلامية نحو بلاد الأندلس واستمرت لقرون سندها الرئيسي طيلة حكم المسلمين لها وملجأ الموريسكيين المنشطين لحركة الجهاد البحري للإغارة على السواحل الإسبانية[22] .

بالعودة إلى أوضاع إسبانيا الداخلية وتحديدا العلاقة بين مملكتي "قشتالة" و"الآراغون" خصوصا مع رغبة "فيرديناند" ومحاولته فرض إصلاحات على مملكة "قشتالة" لتدعيم سلطته في مواجهة النبلاء والكنيسة والتي أدت إلى تصادم بينهما في كثير من الأحيان وتركت أحقادا مزمنة. وعلى العموم فقد احتفظت كلتا المملكتين على مؤسساتها الخاصة مثلما هو الحال بالنسبة للدول التي خضعت لهما في أوربا ورغم المجهودات الدائمة لإقامة حكم مركزي فقد استمر الوضع على حاله وصولا إلى عهد "شارل كينت" و "فيليب الثاني" وخلفائهما وبقيت الأقاليم تدافع بكل قوة على استقلاليتهما وامتيازاتهما وكمثال على هشاشة الحكم المركزي فقد كاد "فيرديناند الكاثوليكي" أن يفقد عرشه وسلطانه بعد وفاة زوجته "ايزابيلا" سنة 1504م لولا جنون ابنته "جيان Jeanne" الوريثة الشرعية لمملكة "قشتالة" ووفاة زوجها "فيليب الجميل" سنة 1506م واستمرار الخلاف بين "فيرديناند" وحكومة الوصاية على عرش

"قشتالة" مع إمكانية أن يولد لـ "فيرديناند" وريثا لعرش الآراغون لا علاقة له بـ"قشتالة" وحرمان أحفاده من "ايزابيلا" وهما "شارل كينت" و "فيرديناند فون هابسبورغ" من العرش[23]. كل ذلك أخر نوعا ما المشاريع التوسعية في الضفة المقابلة للمتوسط وخصوصا "الجزائر" ثم يأتي وصول "كريستوف كولومب" للعالم الجديد الذي جلب منذ أوائل ق16م النبلاء الراغبين في الثروة والسلطة عبر المحيط الأطلسي.
من جهة ثانية كان اهتمام "فيرديناند" والجزء الأكبر من أهل الآراغون بإيطاليا وبالنزاع الذي كلن يتطور هناك بين الدول الأوربية خصوصا فرنسا وإسبانيا للسيطرة على "صقيلية" و"نابولي" فـ"شارل الثامن" [24] ملك فرنسا كان يطالب بسيادته على هذه الأخيرة ليأتي تدخل ألمانيا في الصراع بقيادة "ماكسيميليان دي هابسبورغ" [25]من خلال دوقية "ميلانو" فعمت الحروب أوربا مع تشكيل تحالف إسباني ألماني انجليزي إضافة إلى جمهورية البندقية تحت توجيه البابا "يوليوس الثاني" الذي شكل من تلك المجموعة من الدول ما أطلق عليه بـ "العصبة المقدسة" ضد فرنسا وكانت النتيجة هزيمة هذه الأخيرة وتدعيم موقع وقوة إسبانيا ومهد ذلك لقيام أكبر إمبراطورية في التاريخ الأوربي بقيادة "شارل الخامس Charles Quinte" حفيد "ماكسيميليان" امبراطور ألمانيا و"فيرديناند" ملك إسبانيا رغم هذا الصراع على مستوى أوربا إلا أن السياسة العدوانية لملوك أوربا استمرت ضد المغرب العربي عموما والجزائريين خصوصا متذرعين بمحاربة ما أطلقوا عليه تسمية "القرصنة" وهو في الحقيقة مقاومة وجهاد بحري في مواجهة عدوان مسيحي يعتبر امتدادا للحروب الصليبية.

4-أسباب ودوافع العدوان الصليبي الأوربي على بلاد المغرب العربي

وإذا بحثنا في دوافع هذا العدوان سوف نجد أغلبية المصادر والكتابات الغربية تركز على الدافع التجاري وفي الحقيقة لا يمكن الفصل بين هذا الدافع والدافع الديني

الموجه للكنيسة البابوية في روما. محاولة نشر المسيحية في المناطق المكتشفة والمحتلة وعامل الثراء وكسب الثروة التي تسعى إليه هذه الأخيرة. لقد كان شعار البرتغال في هذه المرحلة ضرب قوة المسلمين في غرب إفريقيا تحت ذريعة التصدي للقرصنة التي كان يقوم بها المسلمون على شواطئ المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط. ولإبراز هذا الحقد الديني الصليبي الموجه ضد المسلمين في المغرب العربي نورد ما قام به الملك "هنري الرابع" من حملات تبشيرية في المغرب عام 1415م وهو يأمل أن يؤدي هذا إلى ارتداد الساحل الغربي لإفريقيا بعد السيطرة على سواحل المغرب الأطلسية ما سوف يؤدي إلى تحقيق هدفين، الأول هو الوصول إلى أسواق الشرق عموما والهند خصوصا. الثاني هو الوصول إلى مملكة القديس "يوحنا" في شرق إفريقيا وهي مملكة مسيحية كان الأوربيين يسمعون عنها وعن قوة ملكها وهم يأملون أن يتخذوها قاعدة في قلب إفريقيا للانقضاض على البلدان الإسلامية التي تحتكر التجارة بين الشرق والغرب. أما بالنسبة لإسبانيا فإن زواج "فرديناند" و"ايزابيلا" يعد بمثابة ميلاد جديد لإسبانيا الموحدة، فقد غلبت على تصرفات "ايزابيلا" صليبية جديدة بدت أكثر تعصبا وتأججا من صليبية القرن الحادي عشر ميلادي خصوصا بعد طرد المسلمين من إسبانيا. وبالعودة إلى العامل التجاري والرغبة تحقيق في الثراء فأكبر مستفيد منها هي الكنيسة البابوية في روما فالحديث عن الأسواق والتحكم في الطرق التجارية خصوصا تجارة التوابل كانت أكثر المصطلحات استعمالا للدلالة على الحركة الاستعمارية وهي محفزة لكسب دعم وتأييد الرأي العام آنذاك لأن الجميع ملوكا وكنيسة وشعبا يسعى لنفس الهدف وهو الثراء والرفاهية ولو على حساب إبادة شعوب قارات بأكملها بدأ من إفريقيا ثم أمريكا لكننا نضيف لها بقاء الكنيسة البابوية ولقرون هي المخطط والموجه وحتى المنفذ لتلك المشاريع التوسعية فممتلكاتها وثرواتها مرتبطة ارتباطا عضويا بتقديم السند والدعم لملوك وأباطرة أوربا في مشاريعهم الاستعمارية فطيلة القرنين 15 و 16 مثلت الكنيسة الكاثوليكية أكبر

مؤسسة إقطاعية في إسبانيا وأكبر المستغلين للأرض والمال، فعشر أملاك مدينة "إشبيلية" من ممتلكات الكنيسة. وتعتبر كاتدرائية هذه المدينة ثاني أكبر كاتدرائية وأغناها في العالم المسيحي بعد كاتدرائية سانت بيير Saint Pierre في روما وقد دفن فيها "كريستوف كولومب" هذه الكنيسة شجعت على استعمال الهنود في المكسيك كعبيد لاستخراج الذهب ليستعمل في تزيين كاتدرائية أشبيلية[26]. وشمل هذا الدعم العدوان الإيبيري على السواحل المغاربية.

بالعودة إلى العامل الديني فإن الكنيسة البابوية في روما هي التي منحت "فرديناند" و"ايزابيلا" لقب الكاثوليك بعد سقوط "غرناطة" في عهد البابا "الكسندر VI"[27]. حتى أن إسبانيا برمتها موجهة بانتصارها الديني على المسلمين ومدفوعة بحقد الكاردينال "فرانسيسكو خيمينيس دي سيسنيروس"[28] والذي كان وراء المشاريع التوسعية على السواحل الجزائرية بما فيها حلم "ايزابيلا" التي ماتت سنة 1504م وهي تشرف على الحملة على المرسى الكبير[29] لكن أجلها سبقها وتركت وصيتها التي جاء فيها : "لا ينبغي إيقاف غزو إفريقيا ولا الصراع ضد المسلمين من أجل العقيدة المسيحية" [30]ودعما لهذا المشروع فقد أعلن البابا من روما أن من مات في صفوفه من المسيحيين يعتبر "شهيدا"[31]. وفعلا احترم الكاردينال "خيمينيس" تلك الوصية وتم احتلال "المرسى الكبير" كما كان مخططا له أكثر من ذلك فالحملة الثانية التي كان هدفها احتلال مدينة "وهران" فقد جهزها الكاردينال بأمواله الخاصة في وقت كانت فيه خزينة إسبانيا تعاني من عجز بسبب حروبها الوراثية في أوربا فما كان منه إلا إفراغ خزائن الكنائس والدير لإنجاح حملته. [32]

ولإبراز أهمية الدافع الديني لابد من الإشارة إلى أن المشاريع الإسبانية استهدفت التصدي لما كانت تخطط له الدولة العثمانية في ضم بلاد المغرب العربي تحت راية

الخلافة الإسلامية. فإسبانيا بتحكمها في "صقلية" و"نابولي" ومن ورائها الكنيسة البابوية في روما فهي في الصفوف الأمامية لقيادة العالم المسيحي وذلك في عهد "فيرديناند" إذن خرجت الحملة الصليبية من شبة الجزيرة الايبيرية ليس فقط من أجل السيطرة على المغرب العربي ولا على العالم الجديد بل فوق كل ذلك احتلال موقع يبرزها أمام الجميع أنها تمثل قلب المسيحية المهددة بالمسلمين وهي "إيطاليا" ليأتي "فيليب الثاني" خليفة "فيرديناند" ليواصل سياسة التوسع لملوك إسبانيا شعاره "استئصال هذا العنصر المسلم الذي لا يمكن مسحه"[33]. هذا الأخير المنجذب نحو البحر المتوسط لارتباطه بماضيه وتجربته البحرية على تلك السواحل وطرق الملاحة المتحكمة في ممتلكاته في جزر "البليار" و"سردينيا" و"صقلية" في وقت انجذب فيه الجميع نحو البلد الغني بثرواته، إيطاليا باحتلاله لنابولي في 1503م مكنه ذلك من التحكم في موقع استراتيجي هام جدا لمشاريعه المستقبيلة سواء المرتبطة بسياسة التوسع في البحر المتوسط أو الوقوف في وجه المد الإسلامي.

ساهمت الكنيسة البابوية في لعب دور الوسيط والمصلح بين الإسبان والبرتغال في قضية تقسيم مناطق توسع واحتلال كل منهما وتفاديا لأي مواجهة قد تقضي على مشروع الكنيسة في تمسيح العالم فكانت وراء معاهدة "توردیسیلاس" في 1494م والتي تحدد مناطق نفوذ كلتا المملكتين.

5-خاتمة

في الأخير يمكن القول أن حالة الفوضى والانقسام والتشتت والصراع على السلطة بين أبناء الأسرة الواحدة في دويلات المغرب العربي، أي الحفصيين والزيانيين والمرينيين ومن جاء بعدهم شجعت البرتغاليين وخاصة الإسبانيين على السعي لاحتلال تلك البلاد التي أصبحت منطلقا للجهاد البحري بعد سقوط الأندلس والتحكم في طرق التجارة عبر البحر المتوسط ما زاد تخوف الإسبان من الإخوة بربروس وطموحهم

E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

لتوحيد بلاد المغرب العربي والانطواء تحت راية الدولة العثمانية مما قضى على كل مشاريع إسبانيا بما فيها الهيمنة على أوربا.

6. الهوامش

[1] « **OUAZZANI EL HASSAN BEN Mohamed (Leon d'Afrique)** » ; Trad A. Epaulard ; Paris VI. 1956. P323.

[2] يحي بوعزيز، **"تلمسان عاصمة المغرب الأوسط"** مديرية الدراسات التاريخية. الجزائر. بدون تاريخ. ص ص 76 – 77.

[3] MOURRE Michel : « **Dictionnaire de l'Histoire** ». Larousse. France 1998 ; p.1156.

[4] « **OUAZZANI EL HASSAN BEN Mohamed (Leon d'Afrique)** » Op.cit. p.405.

[5]محمد مهدي بن علي شعيب، **"أم الحواضر في الماضي والحاضر: تاريخ مدينة قسنطينة"** ط01. الجزائر. ص ص 46 – 47.

[6]يحي بوعزيز: **"المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1236م – 1554م"** مجلة الأصالة. الجزائر. 1974م. ص 23.

[7]عبد القادر حليمي ، **"مدينة الجزائر: نشأتها وتطورها ما قبل 1830م"** ط01. الجزائر. ص 161.

[8]عبد الرحمان الجيلالي، **"تاريخ المدن الثلاث : الجزائر، المدية وملیانة"** ط01. الجزائر 1972م. ص 221.

[9]يحي بوعزيز ، **"مدن تاريخية : وهران"** ط01. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر 1985م. ص 59.

[10] « **OUAZZANI EL HASSAN BEN Mohamed (Leon d'Afrique)** » Op.cit. p.341.

[11] Ibid. P.361.

[12]أحمد توفيق المدني، **"حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492"** ط03. الجزائر 1985م. ص 66.

[13] MONLAU Jean : « **Les états barbaresques. Que sais-je ?** » P.U.F. Paris – France. 1973. P.50.

[14] BRIGNON Jean, et autres : « **Histoire du Maroc** » 1ére Ed. Hatier. Casablanca. Maroc. P.172

[15] MOURRE Michel : Op.cit. p p 1143 – 1144.

[16]عمر بن خروف، **"ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين"**، مجلة الدراسات التاريخية سنة 1987، معهد التاريخ جامعة الجزائر. صص68 – 69.

[17] MERCIER Ernest : « **Histoire de l'Afrique septentrionale ».** Tone II. Paris - France 1888. P.418.

[18] OUAZZANI El Hassan : in : MERCIER Ernest. Op.cit. p.419.

[19] Enri Fontamillo : « **Dictionario de Historia » .** Merino. Madrid. P.218.

[20] « **GRAN ENCICLOPIDIA ».** Planeta. Tomo G. España 1988. Ferdinand II. P4302. Isabelle Larousse. Tomo Esquela, gorgonzola. Ed I. p.5940.

[21]مولود قاسم نايت بلقاسم، **"شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830م"** ط01. دار البعث. الجزائر 1985م. ص 55.

[22]عبد الواحد ذنون طه، **"حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس يعد سقوط غرناطة"**، دار الشؤون الثقافية. بغداد 1988. ص 17.

[23]جون بـ وولف، **"الجزائر وأوربا"** ترجمة : "أبو القاسم سعد الله". المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1986م. ص 25.

[24] MOURRE Michel : Op.cit. p 183

[25] MOURRE Michel : Op.cit. p .730

[26] PEREZ Joseph **: « Espana del siglo XVI »** Anaya. Madrid 1991. P55.

[27] MOURRE Michel : Op.cit. p .75

[28] Enri Fontamillo : « **Dictionario de Historia » .**Op.cit. p218.

[29] MIKEL de Epalza. JUANE. BTA vilar : « **Plan et cartes de l'Algérie XVI-XVIII[éme] siècle »** Madrid 1988. P75.

[30]جون بـ وولف، المرجع السابق. ص25.

[31]أحمد توفيق المدني، **"تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين1530م- 1554م"** مجلة الأصالة سنة 1974م. ص37.

[32] MARIUS Bernard : « **Autour de la méditerranée ; Les Cotes Barbaresques d'Alger à Tanger »** Paris-France. p.187.

[33] MORTEL Alfred Patis : « **L'Espagne au XVI et XVII [éme] siècle »** Madrid. L'Espagne 1878. P.05.

E-ISSN : 2588-2090
ISSN : 1111-3707

7. قائمة المراجع:

-يحي بوعزيز، **"تلمسان عاصمة المغرب الأوسط"** مديرية الدراسات التاريخية. الجزائر. بدون تاريخ.

-أحمد مهدي بن علي شعيب، **"أم الحواضر في الماضي والحاضر: تاريخ مدينة قسنطينة"** ط01. الجزائر.

- يحي بوعزيز: **"المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1236م – 1554م"** مجلة الأصالة. الجزائر. 1974م.

- عبد القادر حليمي ، **"مدينة الجزائر: نشأتها وتطورها ما قبل 1830م"** ط01. الجزائر

- عبد الواحد ذنون طه، **"حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس يعد سقوط غرناطة"**، دار الشؤون الثقافية. بغداد 1988.

- جون بـ وولف، **"الجزائر وأوربا"** ترجمة : "أبو القاسم سعد الله". المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1986م

- مولود قاسم نايت بلقاسم، **"شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830م"** ط01. دار البعث. الجزائر 1985م

- عمر بن خروف، **"ملامح من الحياة الاقتصادية في المغرب في عهد السعديين"**، مجلة الدراسات التاريخية سنة 1987،

- **OUAZZANI EL HASSAN BEN Mohamed (Leon d'Afrique)** » ; Trad A. Epaulard ; Paris VI. 1956.

MOURRE Michel **: « Dictionnaire de l'Histoire** ». Larousse. France 1998.

MONLAU Jean : **« Les états barbaresques. Que sais-je ? »** P.U.F. Paris – France. 1973

MERCIER Ernest : **« Histoire de l'Afrique septentrionale ».** Tone II. Paris - France 1888.

Enri Fontamillo : **« Dictionario de Historia » .** Merino. Madrid

« GRAN ENCICLOPIDIA ». Planeta. Tomo G. España 1988.